الإسلام والفنون

٢١٤,٧ بركات محمد مراد

الإسلام والفنون/ بركات محمد مراد .ـ الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠٠٧م

٦٨٦ ص؛ ١٧×٢٤سم

١ـ الإسلام والفنون ٢ـ الفلسفة ٣ـ الفن الإسلامي

٤ـ العمارة الإسلامية ٥ـ الجمال (فن) ٦ـ التذوق الفني

أ ـ العنوان

ISBN 9948 - 04 - 375 - 8

تمت الفهرسة أثناء النشر بمعرفة مكتبة الشارقة

حقوق الطبع والنشر محفوظة لدائرة الثقافة والإعلام بالشارقة

الطبعة الأولى ٢٠٠٧م

الناشرون: دائرة الثقافة والإعلام – الشارقة (أ.ع.م)

ص. ب: ٥٥١٩ الشارقة

هاتف: ٥٦٧١١١٦ ٦ ٠٠٩٧١

بـــراق: ٥٦٦٢١٢٦ ٦ ٠٠٩٧١

تصميم الغلاف:

ضياء الدين الدوش

د. بركات محمد مراد

الإسلام والفنون

إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة – ٢٠٠٧م

المقدمة

تأتي أهمية الفن في مقدمة ضرورات حياة الإنسان المعاصر، خاصة وأن الفن يمثل لغة عالمية، يمكن للإنسان التخاطب بها، حين تنقطع أمامه طرائق الاتصال، ويقول العارفون إن لغة الفن «هي اللغة العالمية الوحيدة التي استطاعت البشرية أن تخترعها». وعن طريق الفن استطاع الإنسان الكشف عن قدرته على الخلق والإبداع، حيث صار كائناً يغير الطبيعة ويغير نفسه بتغييره للطبيعة، فقد غدا مختلفاً عن كل الحيوانات والكائنات الأخرى التي يقف عملها عند حد التأقلم مع الطبيعة والتكيف بقوانينها. ولا وجود للفن بلا إنسان، كما أنه قد لا يكون هناك وجود حقيقي للإنسان بغير فن.

وتاريخ الفن كان دائماً المدخل والوسيلة لمعرفة الإنسان نفسه، معرفة فنية وواقعية، فلولا ما سجله الإنسان الفنان القديم على جدران الكهوف وعلى جداريات المعابد وعلى صحائف الفخار وأوراق البردي إلى غير ذلك من مواد استخدمها لتسجيل مكونات حياته، بالرسم والصورة والكتلة، ما كان لنا أن نعرف عن الإنسان القديم، وما أحاط بهذا الإنسان من أحداث على مر العصور.

ومن هنا أصبح بدهياً أن الفن قد سبق العلم والفلسفة في حياة الإنسان. فالإنسان البدائي فنان قبل أن يكون فيلسوفاً أو عالماً، والفن لغة وتعبيراً أكثر بدائية من الفلسفة التي تحتاج إلى تنظير ومنطق وحجة وبرهان.

والفن رؤية جمالية إنسانية، يصوغها الإنسان بعد أن يتفاعل مع ذاته ومع البيئة، فيجسد لنا هذا التفاعل أعمالاً فنية متعددة الرؤى ومتعددة الأحكام الجمالية عبر العصور. وبفضل قدرة

الإنسان على التعبير عن أفكاره بالكلمات فقد استطاع البشر أن يعرفوا ما قدمته الإنسانية في عالم الفكر.. وكذلك بقدرة الإنسان على أن يعدي الآخرين بمشاعره عن طريق الفن استطاع أن يجرب ما اختلج في نفوس الأمم السالفة من ألوان المشاعر وضروب الأحاسيس، وبهذه القدرة نفسها يستطيع الإنسان نقل مشاعره إلى الأجيال القادمة.. وأهمية الفن في نقل الأحاسيس والمشاعر لا تقل عن أهمية الكلام في تبادل الأفكار والتفاهم بين البشر.

فالإنسان وهو أرقى أشكال الحياة على الأرض هو الكائن الذي ازداد رقيه خلال السنين فيزيائياً ونفسياً وعقلياً، حتى بلغ مرحلة حرية الاختيار، حرية اختيار القيم والعقائد والسلوك، التي تجلت أحسن ما تكون في إبداعه للأعمال الفنية التي لم يقصد من ورائها حين اكتشف ميله إليها أول الأمر نقصاً ذاتياً وإنما التأكيد لحريته.

لقد حركت الحرية ميل الإنسان إلى الخلق والإبداع، فأثرى عالمه بما أبدعته يداه مستخدماً في خلقه فكره ويديه والخامات المتاحة على الأرض. إن ما أبدعه الإنسان من فنون على مرّ التاريخ كان عنصراً هاماً وركيزة أساسية في ارتقاء البشرية، ولا نشك لحظة في أنه لولا وجود الإنسان على الأرض لبقي كل شيء في هذا الوجود خاملاً هامداً على صورته الأولى.

أما الإسلام فهو أكمل صورة للدين وصلت عن طريق الوحي إلى الإنسان، ويتجلى كمال الإسلام في كونه ديناً شاملاً لا يغفل جانباً من جوانب حياة الإنسان، سواء أكانت حسية أو عقلية أو وجدانية. ولا يهتم بالأبدية معرضاً عن الحياة الدنيا، بل يسعى دائماً إلى تحقيق التكامل بين الحياة الدنيا والآخرة، وبين الحس والعقل، والظاهر والباطن، والمادي والروحي، ومن هنا كان التصور «الفني» الإسلامي للكون والحياة والإنسان هو تصور كوني إنساني مفتوح للبشرية كلها، لأنه يخاطب «الإنسان» من حيث هو إنسان، ويلتقي معه كذلك من حيث هو إنسان.

ويتأكد هذا خاصة وأن الفن لا يعرف الحواجز، لا يعرف حواجز اللغة أو الوطن أو الجنس، إنه تعبير بشري عن الإنسانية في أوسع مجالاتها وأوسع مفاهيمها. والفن الجميل هو ذلك الذي يساهم في الارتقاء بحياة الإنسان سمواً، ويساعد الإنسان على تقريب شقة الخلاف بين ما يبغي وما ينبغي، ويزيل كل التوترات التي تنشأ في نفس ذلك الإنسان، مما يساعد على توحد شخصيته وتكاملها.

ونهتم هنا بعلاقة الدين الإسلامي بالفنون، ففي التجربة الحضارية الإسلامية كان (الدين) هو الطاقة التي أثمرت، ضمن ثمراتها، توحيد الأمة، وقيام الدولة، والإبداع في كل ميادين العلوم والفنون والآداب، شرعية وعقلية وتجريبية، كما كان الدافع للتفتح على المواريث القديمة

والحديثة للحضارات الأخرى، وإحيائها، وغربلتها، وعرضها على معايير الإسلام، واستلهام المتسق منها مع هذه المعايير، لتصبح جزءاً من نسيج هذه الحضارة الإسلامية، والتي كانت إبداعاً بشرياً، إلا أنها اصطبغت بصبغة الدين الإسلامي، كما كانت ثمرة للطاقة التي مثلها وأحدثها عندما تجسد في واقع المسلمين.

والعلاقة بين الدين والفن ليست بالأمر العابر أو الشكلي، ولكنها من الدقة بحيث تستدعي المراجعة دائماً، فالدين مفهوم عام يتحلق حوله الفنانون لأنه يقدم التشوق الروحي الذي يسعى إليه الفنان، وهو من جهة أخرى، ليس معنى غامضاً، ولكنه حقيقة اجتماعية لا يمكن تجاهلها. لذلك تلاقيا منذ الأزل فأصبح تاريخ الفن يتلمس بدايته الحقيقية من خلال الدين تماماً، كما أن أولئك الذين بحثوا في تاريخ العقيدة الدينية لم يجدوا خيراً من تلك التي احتضنها الفن. حينما ندرس التاريخ الديني والفني نلمس ذلك التلازم بين شعور التدين والقلق الروحي والاجتماعي الذي يجسده الفنانون.

ومن هنا لا يكون غريباً أن نجد أحد الباحثين يؤكد على أن كلاً من الفن والدين يعبر عن الحقيقة الكبرى، كما يقول إن القرآن يوجه الحس البشري للجمال في كل شيء، وإنه يسعى لتحريك حواسنا المتبلدة لتنفعل بالحياة في أعماقها، وتتجاوب تجاوباً حياً مع الأشياء والأحياء، ومن هنا يلتقي الفن بالدين.

والفن الصحيح هو الذي يهيئ اللقاء الكامل بين الجمال والحق. فالجمال حقيقة هذا الكون، والحق هو ذروة هذا الجمال، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود. وإذا كان الاستمتاع بالجمال مباحاً في الأصول الإسلامية، فإنه مدخل إلى ارتقاء الروح والذوق، وسمو النفس وخلاصها من التردي والسقوط ومحرك الفكر لكي يجول إلى ما هو أبعد من المظاهر الحسية التي كتب عليها الزوال، فالجمال سبب من أسباب الإيمان وعنصر من عناصره، والقيم الجمالية الفنية تحمل على جناحيها ما يعمق هذا الإيمان ويقوّيه ويجعله وسيلة للسعادة والخير في هذه الحياة.

والفن الحقيقي هو ذلك الفن الذي يزين الحياة، ويكشف عن جوانب الجمال والإبداع فيها، بل هو يقوم بإبداع جوانب من الجمال خفية قد تكون مستكنة في باطن الشعور الإنساني أو مستترة في وجدان الفنان المبدع، فيعبر عنها تشكيلاً معمارياً أو لحناً موسيقياً أو زخرفة مبهرة بهية.

ومن هنا فالتأكيد واجب على أن هناك منفذاً دائم التوقد للمناقشات العقلية والمقارنات الواقعية والتي تؤكد وتنفي، تضيف وتدفع بالتعليقات المفيدة ما دام مثل هذه الموضوعات تعني

الكثير للمتأمل الذي يرى جدية الموضوع وأهميته، خاصة حينما يكون طرفاه بمثل هذه الأهمية الخاصة والمتميزة والدقيقة، وتكون وثيقة الصلة بذات الإنسان في جانبها الروحي والعقلي والعملي بحيث يشكل إلحاق الضرر والنقص بأحدهما أو حتى وضع الحواجز بينهما خطورة واضحة، حينئذ يكون البحث والتناول المخلص جديراً بما يبذل فيه.

وما يعطي الموضوع أهمية قصوى أن الفن مثَّل نشاطاً بارزاً وحيوياً لا يمكن إنكاره في حياة المسلمين وحضارتهم. فنحن أمام حركة فنية مدهشة استمرت أكثر من ألف عام، ودلّت على ذوق رفيع. فمن قبة الصخرة في القدس والجامع الأموي في دمشق، إلى جامع القيروان في تونس، وجامع ابن طولون في مصر، ومن اختراع تقنية الخزف ذي البريق المعدني إلى آلاف القطع الخزفية الرائعة والمنحوتات الخشبية والعاجية والمعدنية إلى المخطوطات الحاوية على نماذج بديعة من أنواع الخط العربي وعلى رسومات ملونة قيّمة.

ومما هو جدير بالذكر أنه إذا كان التراث العربي الإسلامي، الأدبي منه أو الأصولي الفلسفي، قد حفظ نسبياً من الإهمال والاندثار والتدمير، فإن التراث التشكيلي يبدو أكثر تشتتاً وباطنية وإغلاقاً على الذوق العام والخبرة الثقافية اليومية، وكما يقول أحد الباحثين قد ختمت أشلاؤه بالشمع الأحمر وعزلت عن جسم الذاكرة الحضارية في بطون المخطوطات المحجوزة في مستودعات المتاحف ومخافر الثقافة، في مراكز الأبحاث العالمية، وهي تنتقل بين أيدي أصحاب المجموعات الخاصة وتجار الأثريات، وتطبق على ما نجا من أنياب البيروقراطية المحلية، وحذر وأمية مسؤولي الثقافة والآثار.

وما يزيد الأمر صعوبة أنه لا تسعفنا الكتابات العربية القديمة في دراسة الفن: فلم يعن المؤرخون بتدوين أخبار المصورين عنايتهم بغيرهم من الشعراء والأدباء والعلماء. وعلى الرغم من أننا يمكننا أن نكتشف بعض النظريات الجمالية في كتابات المسلمين خاصة منهم الأدباء أمثال التوحيدي والزمخشري أو الأصوليين كأبي حامد الغزالي إلا أنه لم يعن كتاب تلك العصور ب «فلسفة الفن»، لأن الفن لم يكن يحظى دون شك بمكانة غيره من الانشغالات الإبداعية، كما زاد من ذلك «تهميش» الممارسة الفنية في المجتمعات الإسلامية، حيث عانى هذا الفن في كثير من الفترات، من سخط الحكام وبعض الفقهاء، في ضوء تأويلات للإسلام خاطئة وتحجر عند تفسير النصوص، ما زلنا نجد بعض أصدائها عند فرق تريد العودة بالإسلام وفهمه إلى أمثال هذه الفترات من التردي والانحطاط الحضاري.

وقد وصل إلينا الفن الإسلامي متمثلاً في مختلف آثاره من أدب وقص وشعر وعمارة وتصوير

وزخرفة وخط ومنمنمات، دون فلسفته، أو أخبار فنانيه، ودون شروح لتقنياته وأساليبه. ولهذا لا نبالغ إذا تحدثنا عن المحاولات الجمالية والنقدية المتأخرة والحديثة لفهم «الجماليات الإسلامية» ولتأسيس فلسفة تفسر مختلف الفنون الإسلامية، بوصفها المحاولات الوحيدة لاستيعاب هذه الفنون واستخراج قوانينها الجمالية.

وعلى الرغم من كثرة الدراسات التي قدمها المستشرقون في الفن الإسلامي في القرون الأخيرة إلا أنها لم تحتو على فلسفة شاملة وشافية له. لذلك سنحاول أن نستنطق ونستلهم هذا التراث الأدبي والفني عناصر ذاتيته وأركان شخصيته المميزة، سعياً وراء فهم متفتح لمبادئ فلسفته، واستشرافاً لتلك الروح التي نستشعر أنها كانت وراء كل ذلك الإنتاج المترامي الأطراف في العمق والمساحة والذي يغطي مساحة جغرافية كبيرة من العالم ويستغرق كثيراً من القرون التي تتجاوز ثلاثة عشر قرناً من الزمان. خاصة بعد أن بدأ الغرب يولي آدابنا وفنوننا كثيراً من اهتمامه، ويشير بعض مفكريه ونقاده إلى عبقرية فذة تتبدى في تراثنا المعماري والتصويري والزخرفي.

فنحن نعني أن هذا هو اجتهادنا المتواضع ورأينا وفهمنا للإسلام بحسب علمنا، الذي سنحاول أن نبذل فيه كل جهد عقلي ولا نركن فيه إلا إلى ما يطمئن إليه حدسنا. ولا ندعي أن هذا هو (حكم الله) الفاصل في الموضوع وكما أشار إلى ذلك بحق الباحث والمفكر الكبير محمد عمارة في أحد كتبه فإن (حكم الله) لا يعلمه إلا الله ورسوله، ويجتهد العلماء والمفكرون في محاولة إصابته، وإذا كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد أوصى صاحبه، ذلك الذي ذهب على رأس الجيش محارباً، فقال له: «إذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا»! (رواه مسلم وأبو داود والدارمي والترمذي والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد). ومن هنا فنحن نعني بموقف الإسلام: رأينا واجتهادنا ورؤيتنا لموقف الإسلام من الفن بمختلف تجلياته وبتعدد صوره وبتوزع أشكاله في شتى مناحي الحياة.

ولقد اكتشفنا أن الفنان المسلم كان يوظف الجماليات عبر الفنون توظيفاً ارتقائياً، يجعل منها مفازة أو معراجاً يصعد به الشعور أو يرقى به الوجدان من الجميل إلى الجليل. فالرؤى الجمالية في المنظور الإسلامي هي عبارة عن طرق عدة نقطة الوصول فيها واحدة، فكل الفنون الإسلامية بكل ما تتخذه لنفسها من أساليب للتعبير إنما تنطلق من نقاط مختلفة على محيط الدائرة لتصب في مركز واحد، ومن نتيجة وحدة المقصد هذه أو قل وحدة توظيف الجمالي للمقصد

الجلالي، تتشابه الفنون الإسلامية أو تتقارب إلى حد كبير بما يسقط قيمة الخصائص الإقليمية أو الجغرافية في الفنون الإسلامية.

وقد وجدنا أن الفنان المسلم قد عاش تجربة التوحيد من خلال فنه، فالفنان من خلال تجربته الإبداعية يكشف عن التوحيد كقضية شخصية إما عن طريق تأمله للأشياء وتصويرها تمثيلياً أو عن طريق تجريده للأشياء من تجسيماتها وتصويرها خطوطاً ومسارات، وكلا النوعين من الرؤية الفنية ينبع من رؤية معرفية يتبعها الفنان للوصول إلى التوحيد. ومن هنا لم يكن غريباً أن يعبر فن الأرابيسك أو الخط أو الزخارف الهندسية التجريدية مثلاً عن مضمون الإسلام الروحي المتمثل في التوحيد.

وسيتبين لنا كيفية انتقال المعاني الروحية الإسلامية إلى صيغ جمالية دنيوية، وكيفية تمكن الفنان المسلم من التعبير عن الموجود اللامتناهي في كماله والذي يعجز دائماً في التعبير عنه بالكلمات والعبارات والتصورات، من خلال مفهوم التجريد والرمزية والتأسلب. وسنجد أن الفن عند الفرد المسلم ليس هو الفن ابتغاء الفن، كما يرى أصحاب مبدأ الجمالية بل دائماً الفن ابتغاء لوجه الله.

إنه الفن الذي يعين خلق الله على أن يحققوا ما أراده الله لهم بنجاح أكثر؛ إنه الفن الذي مهما تكن صورته مرئياً أو أدبياً أو موسيقياً فإنه يقوم بدور رئيس في تذكير الفرد المسلم دائماً بعقيدته ومسؤولياته؛ وهو دائماً معه في منزله أو في عمله، وفي مسجده، يحيطه بتلك المناظر الخلابة والأصوات التي تقربه من دينه، وتقوّي صلته بثقافته. سنجد أن الفن يقوم بدور رئيس في المجتمع المسلم، إنه ترجمة دقيقة وعميقة لعقيدة التوحيد، ترجمة باللون والشكل، بالحجارة والبناء، بأبيات الشعر وأصوات الموسيقى.

لقد استعرضنا في الباب الأول كثيراً من المفاهيم والأفكار والنظريات الجمالية قديما وحديثاً، بإسهاب، من أجل تكوين تصورات شبه متكاملة عن تطور الفن وعلم الجمال عبر العصور عند القارئ، لمساعدته في الوصول إلى ما يمكن تسميته (باللياقة الفنية والجمالية)، ليتمكن من إدراك فلسفي وفني عميق للأعمال الفنية الإسلامية ولتذوق تجليات الجمال عبر مختلف الفنون الإسلامية سواء أكانت فنوناً أدبية تتمثل في المسرح والقصة والشعر أو فنوناً تشكيلية، كما هي متبدية في العمارة والتصوير والزخرفة، أو فنوناً تجريدية كما هي متجلية في الخط والأرابيسك. بل وفنوناً تطبيقية كما هي سائدة في السجاد وسك العملة وصناعات الخزف والزجاج.

أما في الباب الثاني الذي جعلناه قسمين، فقد عالجنا في القسم الأول منه موقف الإسلام

الديني والأخلاقي من الفنون تحت عنوان (المعايير). ثم تناولنا في القسم الثاني كل الفنون الأدبية كالشعر والقصة والمسرحية أو التشكيلية كالعمارة والموسيقى والتصوير والزخرفة أو التجريدية كالخط والأرابيسك.. تحت عنوان (المجالات).

وفي الباب الثالث تناولنا فلسفة الفنون الإسلامية حيث استعرضنا إبداع الفنان المسلم، وإشكالية الجميل والنافع في الفنون الإسلامية وجعلنا من نظرية الفن وفلسفة الجمال عند التوحيدي مثالاً تطبيقياً لنظريات علم الجمال التي وضعها المفكرون والأدباء المسلمون.

ثم ختمنا البحث بمناقشة الأساس الروحي والفلسفي للفنون الإسلامية من خلال إدراك الأفكار والقيم والمبادئ التي كانت تعتمل في عقل الفنان المسلم وقلبه وتجلت واضحة جلية في إبداع هذه الفنون.

د. بركات محمد مراد مدينة نصر / القاهرة

سبتمبر عام ١٩٩٨م

المدخل

أ- الفن: أهميته – ضرورته:

ذهب فيلسوف علم الجمال «ارنست فيشر» في كتابه «ضرورة الفن» إلى أن الفن يلعب دوراً هاماً في تحقيق التوازن بين الإنسان وبين العالم الذي يحيا فيه، ومن أجل ذلك فقد رأى الفن ضرورياً في حياة الإنسان، لأنه وسيلة لربطه ببيئته وبالطبيعة التي يعيش فيها، ومصدراً من مصادر المتعة والراحة النفسية التي يستشعرها المرء حين تتجاوب عواطفه مع أبطال قصة أدبية، أو تنفعل نفسه لرؤية لوحة فنية أو لسماع لحن موسيقي، فضلاً عن إضافة حيوات إلى حياة الإنسان.

وأرجع سر ذلك إلى رفض الإنسان العزلة، وإحساسه بالنقص في وحدته، ونشدانه الطبيعي للكمال، وحفز الحياة له على البحث الدائم عن المشاركة الوجدانية مع هذا العالم الذي يتسع له ولغيره من الناس ما دام عالماً مفهوماً يتسم بالمنطق والعدالة، ولهذا حرص الفرد على الإفلات من إسار حياته الخاصة والخروج من إطار ذاته إلى إطار أوسع يندمج فيه الشخص بالعالم الذي يريد أن يزداد إدراكاً له، وعلى إذابة فرديته في حياة مشتركة تحيل فرديته المحدودة إلى فردية اجتماعية بالمعنى الحديث.

وكان أحد الفلاسفة الألمان يرى أن الاستمتاع بالفن رياضة نفسية هامة، وأنه من أقوى وسائل التهذيب، ومن أحسن الذرائع إلى التوجه العلمي والسمو الأخلاقي، وذلك لأن تأمل الجمال يطامن من غلواء الحس، ويجرده من الخشونة والجفوة، ويعلمنا كيف نراقب الأشياء رقابة تأملية هادئة دون أن تغلي نفوسنا حرارة الرغبات، وهذا مما يطلق النفس من أسر المطالب

واللَّبانات ويجعلها قابلة لإدراك القيم السامية: قيم الحق والخير والجمال.

وقد لا يخلو من صواب قول «ولتر باتر»: «إن قيمة فلسفة الفنون كانت في الغالب في الأفكار الموحية النافذة التي وردت خلالها عرضاً. وليست فلسفة الفن سياحة جميلة في أقطار مطروقة وبلاد مأهولة، وإنما هي أشبه برحلة استكشاف يرود فيها الباحثون مجاهيل خفية وأقاليم غير معروفة، والتفكير الفلسفي لا يرمي من وراء ذلك إلى تحسين الفن وخلق مقاييس له وإقامة حواجز تحد من حريته، وإنما غرضه إجادة التفكير في الإنتاجات الفنية والوقوف على سر الإعجاب بها والإحساس بجمالها، وربما كانت هذه المحاولة النزيهة أنفس نتائجه وأشهر ثمراته»(١). وبذلك يصبح الجمال البادي في مختلف أنواع الفنون وسيلة إنقاذ .. يقول جورج لوكاتش: «الجمال ينقذ الإنسان من الانحطاط الإنساني المميز للمجتمع».

وبهذا يتحرر الإنسان من التشيؤ والانفصال والفقدان لتلك الخصائص التي بدأت تميز عصرنا الحديث، والحرية كما عرفها هيجل هي «الرغبة في قهر كل ظرف لا يكون ملائماً للحرية»، ومن هنا ينص الشاعر الفيلسوف فردريك شيلر على أن «الفن هو ربيب الحرية ويجب أن يتلقى رسالته من احتياجات النفوس لا من متطلبات المادة»(٢). لقد ولد الفن مع الإنسان ورافقه في تطوراته المختلفة، فكان المرآة الصادقة التي تعكس صورة حقيقة الإنسان عبر التاريخ.

وإذا كانت أعمال فنية قد بقيت خالدة حية حتى اليوم مثل ملاحم «هوميروس» ومآسي إسخيلوس وسوفيكليس، فذلك لارتقائها عن مجرد تسجيل مجتمعاتها إلى التعبير الفني عن عظمة الإنسان من خلال أحاسيسه ومعاركه، ولانطوائها على كثير من العناصر الإنسانية التي ترتبط بالزمان أو المكان، حتى إننا نحس ونحن نشهد نماذج حديثة تحيا بيننا ونعاني من التجارب في حياتنا اليومية مثل ما تعانيه.

وقد أمكن لكثير من الفلاسفة المعاصرين أن يعرفوا الإنسان بأنه الحيوان القادر على خلق الرموز. وليس التعبير الفني إلا وسيلة من وسائل الرمز عند الإنسان. بل لعل الرموز الفنية من أبلغ الرموز دلالة على نفسية الإنسان وعلى حضارته.

وعالم الإنسان هو شبكة من الرموز، فاللغة والعلم والفن والأساطير كلها رموز تعبر عن الحقيقة، حتى الموجودات الفيزيقية تتحول إلى رموز في فكر الإنسان بفضل هذه القدرة التي تميز بها. يقول إبيكتتوس الفيلسوف العبد «ليست الأشياء في ذاتها خيراً ولا شراً، وإنما الذي يخيف الإنسان منها هو أفكاره وتصوراته عنها»(٣). ومع تطور الحياة اكتسب الفن وظيفة

جديدة في حياة الإنسان هي إلقاء الضوء على العلاقات الاجتماعية ومعاونة الإنسان على رؤية الواقع الاجتماعي المتغير.

ومع ظهور هذه الوظيفة الجديدة أصبح من الضروري ظهور أشكال تعبيرية أكثر تطوراً من الأسطورة والخرافة اللتين عبرتا عن مجتمعات الماضي، وذلك حتى تستطيع إعادة تشكيل المجتمعات الحديثة المعقدة ذات التناقضات والعلاقات المتشابكة، في صورة فنية ملائمة، وهكذا ظهرت القصة القصيرة والرواية الطويلة. ومع ذلك فقد بقي الفن بعنصريه الوجداني والعقلي ممتعاً ومنبهاً مؤدياً وظيفته الأساسية الدائمة، وهي إثارة العواطف البشرية المختلفة ومنح (الذات) قدرة الاندماج فيما حولها. وقد رفض «رينيه ويج» فيلسوف الجمال الفرنسي أن يكون الفن أحد كماليات الحياة التي تجملها أو اللعب التي يتسلى بها المرء ومصدراً للتوازن النفسي الذي يمكن الإنسان من مواصلة الحياة، فالتقى في ذلك بعالم الجمال «ارنست فيشر»(٤).

ولا شك أن دور الفن في خلق التوازن النفسي قد أضحى اليوم أكثر أهمية من أي وقت مضى، فقد انقضى الزمن الذي كان يحيا فيه الفنان ملتصقاً بالطبيعة، كثير الخلو إلى نفسه ينمي فكره بالقراءة والتأمل واستيحاء الطبيعة، وأصبح اليوم «الصورة» التي تحاصر عينيه أينما ذهب، صور الإعلانات ولافتات الدعاية التي تصدم حسه وتثير انفعاله.

لقد ولى عصر حضارة «الكتاب» وحلت محله حضارة «الصورة» فانتقصت من الوقت الذي كان يخصصه المرء للقراءة الجادة المستغرقة المتأنية العميقة، بل لقد صرنا نختصر الجملة الكبرى في كلمات، ونحيل الأفكار إلى صور مرحة تجتذب بها الأعين في صفحات كاملة من الفكاهات، لذلك تأتي أهمية الفن في مقدمة ضرورات حياة الإنسان المعاصر، خاصة وأن الفن يمثل لغة عالمية، يمكن للإنسان التخاطب بها، حين تنقطع أمامه طرائق الاتصال. ويقول العارفون إن لغة الفن «هي اللغة العالمية الوحيدة التي استطاعت البشرية أن تخترعها»(٥).

ومن الدليل على صحة هذا القول أن اختلاف الألسنة، يحول بيننا وبين أفكار الفلاسفة والشعراء في لغة غير لغتنا،أو في بلد غير بلدنا، إلا عن طريق الترجمة وأن هذه الأفكار حتى بعد ترجمتها لا تستغني عن التفسير التوضيحي الطويل. أما مبتكرات المعماري، والمصوّر، والخزّاف، والنسّاج، وغيرهم من أرباب الصناعات الفنية فهي على اختلاف بلادها سهلة النطق والفهم لإشباع حاسة الجمال فينا، ولو أن هذه المبتكرات تعوزها بعض شروح الأخصائي، لإدراك ما فيها من فنانة وإبداع.

وهذه الحقيقة تنطبق على فنون جميع الحضارات، وعلى فنون الحضارة الإسلامية ضمناً، ولم

تكد الفنون الإسلامية تصبح معروفة في غرب أوروبا حتى غدت موضع تقدير، بل لم تلبث نماذجها التي وصلت إلى أوروبا ثم أمريكا أن احتلت مكانة ممتازة عند المعنيين بالفنون بشهادة كثير من المستشرقين(٦).

وإذا رجعنا إلى تاريخ الفن وتاريخ علم الجمال، تبين لنا أن الفنون إنما ابتدأت موحدة ثم تنامت مع تطور الإبداع الفني، وتشكل من خلالها تاريخ الحضارة والفن بجميع أشكاله مرتبط بالجمال سواء أكان هذا الجمال متعلقاً بالشكل أو بالحركة أو بالكلمة. بل حتى لو تعلق بالفكرة والعقيدة. وقد نسمي ذلك كمالاً أو جلالاً ولكن هذا لا يغير من معنى الجمال وهو التناسق.

إن التناسق بين الأبعاد والألوان والحجوم، يقدم لنا الجمال الشكلي، والتناسق بين الأصوات والأنغام نسميه الموسيقى، والتناسق بين الكلمات والأوزان نسميه شعراً، كما نسمي تناسق الأفكار فلسفة، ونسمي تناسق السلوك أخلاقاً.

لقد ابتدأ مفهوم الجمال موحداً ونما متنوعاً نسبياً، وتاريخ الحضارة هو سجل واسع لتنوع أشكال الإبداع الجمالي، كما يقول أحد الباحثين المعاصرين(٧)، وبالمقابل يتحرك الذوق الجماعي باتجاه جميع أشكال الفن منطلقاً من وحدة الجمال، فيرى في الشعر جمال العمارة وفي العمارة جمال الشعر، ويرى في الصورة جمال الموسيقى، كما يرى في الفكر جمال العقيدة.

وإذا كان العلم يهتم بالتعبير عن صفات العالم الظاهر، فانه لا يمكنه التعبير عن عالم الحقيقة بموجب صيغه الرياضية، ولا باللغة الاعتيادية، ومثلما لا يقدر الصوفي أن يعبر عن نفسه بوسائل اعتيادية، كذلك الفنان فإنه يستخدم المواد المحسوسة حتى الفن الأدبي يستخدم الكلمات لا ليخبر بل ليوحي يحاول أن يعرض لا أن يصوغ نتائج الاستبصار الفني في الحقائق الواقعية.

والفنان بهذا المعنى، كما يرى أحد المستشرقين(٨) نوع من الصوفية مهتم كجميع الصوفيين بطبيعة حقيقة لا يمكن التوصل إليها بأي شكل آخر. ويمكننا باستجابتنا للتحف الفنية (الاستجابة الجمالية) أن نتغلغل إلى ما هو أزلي وغير متغير، وبالتالي أن نحرر نفوسنا من وقتية التجربة الدنيوية. ويجب أن نوقن رغم كل شيء أن كلاً من العلم والفن يسهم بطريقته المميزة في فهم الإنسان والعالم فكلاهما له مكانة مميزة في العمل المعرفي الكلي، فإذا كان الفن (الشعر خاصة) كما يرى الشاعر الإنجليزي لويس C. Day Lois يعمق رؤيتنا بإزاء الجانب الكيفي للشعور والقيمة، فإن العلم يكشف لنا عن الجانب الكمي للقياس والاطراد، بمعنى أن معرفة الجانب الكيفي والقيمي للشيء لا تقل إسهاماً عن معرفة الشيء كحقيقة يحكمها قانون علمي(٩)، وهو ما أشار إليه أيضاً ارنست كاسيرر في كتابه «مقال في الإنسان» حيث يرى أن

الفن كسائر الأشكال الرمزية ليس سخفاً حرفياً لحقيقة جاهزة، وإنما هو إحدى الطرق المؤدية إلى نظرة موضوعية للأشياء والحياة الإنسانية.

فحقاً إننا لا نكتشف الطبيعة من خلال الفن بنفس المعنى الذي يعنيه رجل الطبيعة حين يستعمل كلمة (الطبيعة) فالعلم اختزال للواقع، والفن تكثيف للواقع، والعلم يقوم بذلك عن طريق التجريد، والفن عملية مستمرة من التجسيد إلا أنهما يصلان مع اختلاف منهجهما إلى غاية واحدة هي أن الفنان يستكشف صور الطبيعة مثلما يستكشف حقائق القوانين الطبيعية(١٠).

وهكذا فالعلم والفن كما يقول ستيفن بيبر Stephen Pepper في كتابه «المفهوم والقيمة» كلاهما جزء من المؤسسة الثقافية، وكل منهما يمتلك قيماً ثقافية مهمة. فالقيم بالنسبة للفن هي أساس قيم تحقيقية Consummatry، وبالنسبة للعلم هي قيم أداتية Instrumental وكلاهما يسهم في المعرفة الإنسانية على نحو كبير، فالفن يختص بالخبرة الحية، والعلم يهتم بالتحكم التصوري للبيئة الإنسانية، والحكمة الإنسانية تتطلب ألا نفصل بينهما بحدة، فكل منهما يحتاج للآخر من أجل نظرة متوازنة عن العالم(١١).

هذا فضلاً عن اكتشاف الإنسان في الفن عن قدرته على الخلق والإبداع، مما يعطي للزمن عنده دلالة وإيقاعاً جديدين، ويصبح للطبيعة زمنها الذي يقاس بالتغيرات التي تجري في المادة، على حين يصبح للإنسان زمنه الذي يقاس بإبداعاته بوصفه كائناً يغير الطبيعة ويغير نفسه بتغييره للطبيعة، وبذلك يغدو كائناً مختلفاً عن الحيوانات الأخرى التي يقف عملها عند حد التأقلم مع الطبيعة والتكيف بقوانينها.

وحينما يستلهم الإنسان الفنان عناصر من تراثه الثقافي في مضامين وأشكال عمله (الفنان المحدث) إنما في الواقع، يعبر بشكل آخر عن قدرات الإنسان في مجتمعه في إطار من تطور مجتمعه الفكري. لذلك، فإنه من الضروري للفنان، أن يعرف قيم تراثه الثقافي، كما يعرف قيم التراث الثقافي الإنساني قدر الإمكان، وكلما اتسعت آفاقه الثقافية، انفتحت أمامه مجالات عديدة من الرؤية الفنية لواقع الحياة.. حياته هو ككائن ثقافي، وحياة مجتمعه كوحدة أساسية في بنية المجتمع الإنساني ككل. باعتبار أن الإنسان هو محور الوجود ومركز الإبداع الإنساني. والفنان المبدع، هو إضافة مستمرة لسجل الحياة الإنسانية في كل مجتمع وعلى مرّ العصور.

وتاريخ الفن يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الإنسان نفسه، إذ لا وجود لفن بلا إنسان، كما أنه قد لا يكون هناك وجود حقيقي للإنسان بغير فن... وتاريخ الفن كان دائماً المدخل والوسيلة